جويس كارول أوتس

مرثية الأخت الضائعة

ترجمة: أحمد شافعي

١

لم يكن مخططا لميلادها.
كانت صدفوية محضة، عرضية. هبة.
ولدت في السادس عشر من يونيو سنة ١٩٥٦. في عيد ميلادي الثامن عشر.
"ساعدينا في تسمية أختك يا جويس".
ابتهجنا. وارتعبنا أيضا.
برغم أنني وأخي روبن كنا نعرف منذ شهور أن أمنا حبلى، لم نكن نود حقا أن ندرك أن أمنا سوف تضع طفلا.
بمعنى أن مجيء طفل يعني حضورا جديدا في المنزل، ومركز جاذبية جديدا تماما. كأنما مادة مشعة أتت لترتاح بيننا، خادعة، بصغرها، بضآلتها، ملقية ضوءا قويا.
تعمى به العيون أحيانا.
ولو أن هناك ضوءا تصم له الآذان، فهو هذا الضوء.
"ساعدينا في تسمية أختك الصغيرة يا جويس"
كانت تلك هبة عظيمة لي أنا المغرمة بالأسماء. فقبلت المسؤولية بجدية شديدة.
ولما كنت "جويس كارول"، فقد كان هناك اقتراح بأن تحمل أختي اسمين هي الأخرى.
تتابُع الأسماء في مخي كالتعويذة.

حة ضوئيا بـ CamScanner

الأسماء الفاتنة لي، في ذاتها. المقاطع الصوتية الشبيهة بالشعر.

كنت في طفولتي أتخيل أن الاسم يضفي أهمية. وقوة، وسلطة. وغموضا. وحينما كان ينطق اسمي في بعض الأحيان- وبأصوات معينة، لا بكل الأصوات- كنت أرتعد كأنما مسّ أحد روحي نفسها. كنت أشعر أن جويس كارول اسم شديد التميز، فقد كان له في أذني وقع موسيقيٌ رشيق، لم يبد لي ثقيلا أو خشنا أو سقيما.

كنت أعرف أن أبويّ هما اللذان سمّياني، وأن تسميتي كانت بالنسبة لهما أمرا خاصا. أعتقد أنني أتذكر أن أمي قالت إنها رأت اسم جويس في صحيفة فأحبته لما بدا لها فرحا. ولكن أبويّ سمّياني معا.

أبي الذي كان يحب الموسيقى ويعزف البيانو سماعيا ويغني في كثير من الأحيان ويدندن ويصفر لنفسه وهو يعمل في البيت. فكان صوت بابا يأتي من غرفة أخرى، وهو يغني لنفسه في غاية الخفوت. بدا لأبي أن في اسم كارول شيئا من الموسيقى، أو الأغنية. فكان ميل أبي الموسيقي مرتبطا بطريقة ما باسمي.

والآن صارت مسؤوليتي أنا أن أسمّي أختي الصغيرة.

(هل تشاورت مع روبن؟ أريد أن أتصور أنني فعلت).

كانت الأسماء المفضلة هي فاليري، وسينثيا، وسلفيا، وأبيجيل، وأنيت، ولين، ومارجريت، وفيوليت، وفيرونيكا، وروِدا، وري، ونيدرا، وتشارلوت، أسماء بنات كُنّ في ذلك الوقت أو في أوقات سابقة عليه زميلات دراسة لي في لوكبورت أو في ولْيَمْسْفيل، وصاحبات لي، أو بنات كنت معجبة بهن عن قرب أو بعد، بنات كانت لهن خصوصية واضحة، أو خصوصية في نظري.

تعرف الكاتبة/ الشاعرة أن الأسماء تمنح السحر. أو تفشل في منح السحر. والأخت الكبرى للوليدة كانت تعرف أن الاسم سيكون حاسما في حياتها. فلا يمكن الإهمال في تسميتها، بل الحذر الشديد. والحب.

اندهشت صديقاتي في المدرسة الثانوية حينما قلت لهن أخيرا، وكنت عازفة لشهور عن البوح لهن، بأن أمي ستضع طفلة في يونيو.

قالت إحدى صديقاتي بلا لياقة "ولكن أمك كبيرة جدا".

وفي الحقيقة كانت أمي في الثانية والأربعين. ولم أكن راغبة في الظن بأن هذا كبير جدا.

اضطراري أن أنبئ الآخرين بحمل أمي جعلني أعي بذاتي إلى حد الألم. كنت أشعر بوجهي يلتهب بينما صديقاتي يغمرنني بالأسئلة.

"متى عرفت؟"

"لمَ لمْ تخبري أحدا؟"

"ألن يكون هذا غريبا ـ رضيع في العائلة؟ أصغر منك بكثير؟"

وبحماس بناتيّ، ربما لا يكون صادقا تماما، أعربت صديقاتي عن تمنيهن لو يولد في أسرهن طفل جديد. ووقفت بينهن أبتسم ابتسامة شاحبة، راجية أن يتغير الموضوع.

غيرَ راغبة أن أفكر: لماذا تبتسمين؟ لماذا أنت فرحة هكذا بالنيابة عني؟ الطفلة بديلي. أنا سوف يطويني النسيان.

(برغم أنه في عام ١٩٥٦، كانت الثانية والأربعين بالقطع سنا كبيرة للغاية بالنسبة للإنجاب).

حينما أنبأني أبواي أنا وروبن بالطفل المنتظر في يونيو، اندهشنا، وتحرجنا. لا بد أن شيئا من الدوار قد أصابنا، ولكننا بما في أسرتنا من ميل إلى الصمت، لم نطرح الكثير من الأسئلة. أعتقد أننا فرحنا بالخبر فرحة بسيطة معتدلة. أو أن الخبر على أقل تقدير لم يصبنا بالحزن.

إن الأسماء تمنح السحر أو تفشل في منح السحر والأخت الكبرى للوليدة كانت تعرف أن الاسم سيكون حاسما في حياتها. فلا يمكن الإهمال في تسميتها، بل الحذر الشديد. والحب.

لم يقل أي منا للآخر: لماذا يفعلان هذا؟ هما لا يحتاجان طفلا في الأسرة، ونحن عندهما.

(بدا لي في الحقيقة أنه لم يمض وقت طويل منذ أبلغني أبواي بالخبر المدهش بأن لي "أخا صغيرا وليدا" اسمه روبن).

أخ وليد! وليد!

كنت في الخامسة. بل الخامسة والنصف. (فهذه الكسور تكون بالغة الأهمية وأنت طفل). لا أتذكر هل كنت أعرف مسبقا أن أمي سوف تضع طفلا، أو حتى إن كنت أعلم أي شيء عن المواليد. برغم أنني كنت أرى القطط في الحظيرة مثقلات بحملهن، ماضيات إلى إنجاب جماعة من الهررة، فما كان ليكون لغزا تاما على طفلة حادة العينين كالتي كنتها أن الهررة بطريقة ما تأتي من ماما القطة.

ولد أخي في وقت غير مناسب بصورة غير معقولة فيما بدا لي: في يوم الكرسماس! فهل كانت تلك غلطته؟ ما الذي كان يمكن أن يجول بعقل الطفل؟ وهو يقتحم يوم الكرسماس، الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤٥، على ذات الخمس سنوات ونصف التي طال بها انتظاره.

كانت عيناه في زرقة بيضة طائر أبو الحناء[1]. طفل صغير ناعم البشرة، بني الشعر أملسه. كم كانت دهشتي شديدة، وإحساسي بخيانة أبويّ لي.

وسرعان ما وقعت في غرام أخي الصغير فصرت كثيرا

١- روبن robin تعني طائر أبي الحناء.

حة ضوئيا بـ CamScanner

ما أظهر في الصور الفوتوغرافية وأنا أحتضنه أو ألعب معه. والصورة المفضلة على الإطلاق هي التي يظهر فيها وهو يشد إحدى خصلات شعري اللولبية بينما أنحني أنا عليه مانحة إياه نظرة منذرة. لكن حينما عاد أبي بأمي من مستشفى لوكبورت العام إلى البيت ومعها الطفل الجديد المدعو روبن ملفوفا في بطانية، كان أول رد فعل لي أن جريت واختبأت. ومن داخل خزانة باردة في بيتنا سمعت من ينادي باسمي جويس؟ جويس؟ فأبيت أن أجيب. وانتويت ألا أرد لوقت طويل.

١٦ يونيو ١٩٥٦، الذي تصادف، تصادف تماما، أن كان عيد ميلادي الثامن عشر.

لكن ما من أحد يؤمن بالمصادفة التامة. نحن نؤثر الاعتقاد بالرمزية، لما يبدو أنها تنطوي عليه من معنى ومغزى.

ما الذي كان يعنيه أن تولد أختي في يوم عيد ميلادي؟

بعيدا عن التاريخ الاعتباطي، كان طبيعيا أن أخمن أن أبوي خططا مسبقا لكي يولد طفلهما الثالث في وقت مقارب للذي يخرج فيه من البيت طفلهما الأول.

ذلك ما ذهب إليه تفكيري، ولو أنني كنت أحكم من هذا وأدرى. وفي السنوات التالية، سيبدو لي منطقيا من الناحية الفلكية، أني ولدت في يوم بلوم[٢]، أنا التي نشأت على الإعجاب بجيمس جويس

(هل منحني أبواي اسم الكاتب الأيرلندي؟ لا، لا، لا، ولا).

لكن بين الأقارب، وبين الأصدقاء، وبين من كانوا يرون أنهم يعرفون والديّ، بات من قبيل المسلمات القول بأن والديّ حسباها جيدا، لكي يحل طفلهما الثالث محل الطفلة الموشكة على مغادرة البيت. وكأن بوسع أحد أن يحسب حملا بمثل هذه الدقة!

الواقع أن الحمل- حسبما ألمح أبواي (قليلا الكلام)- كان أقرب إلى المصادفة. المفاجأة، بل ربما الصدمة للأبوين اللذين كانا في منتصف العمر، لكنها صدفة بلا دلالة رمزية خبيئة.

مصادفة لا تخلو من سخافة.

أو كما سيعتبرها أبي لاحقا: هبة.

"سيكون سهلا أن نتذكر يوم ميلادكما. سنحتفل بهما معا".

"ساعدينا في تسمية أختك يا جويس".

ولكنني كان يصعب عليّ الاختيار. ومن بين كثير من الأسماء الجميلة، كيف يمكن اختيار مجرد اثنين؟

فهمت طبعا أن طلبهما مني تسمية أختي الوليدة كان طريقة لطيفة منهما لإشراكي في حضورها داخل الأسرة، فلا أشعر أني أتعرّض للتجاهل أو الاستبعاد.

أو ربما كان أبواي يعتقدان بصدق أنني الوحيدة في الأسرة ذات العلاقة بالكلمات فيمكن أن توكَل إليّ هذه المسؤولية.

هل أحببت أختي الوليدة؟ نعم. فلم أملك حينما رأيتها بين ذراعي أمي، ورأيت مبلغ فرحة أمي بها، وأبي، إلا أن ملأت الدموع عيني.

هل كنت يوما ما صغيرة بهذا الشكل؟ هل أحباني قط كل هذا الحب؟

يزعمون أن أول من يولد في أسرة يبقى لديه إلى الأبد شعور أصيل بالخصوصية البالغة، بالاصطفاء. لكن يبدو منطقيا أن الوليد الأول هو الذي ينحّيه، بلطف أو بقسوة، الوليدُ الثاني، بل والثالث.

لا بد أن أبناء الأسر كبيرة الأعداد لا يستشعرون الاصطفاء بقوة، وليس من الأرجح أن يشعر أيٌّ منهم بالأهمية الذاتية. ولكن وسط الكثير من الإخوة والإخوات، ذلك أنسٌ رائع.

بدا لي طبيعيا أن الطفل الجديد لا بد أن يغلب مشاعر أبويّ تجاه الآخرين: أي أنا وشقيقي. مجرد ضعف الوليد الجديد إقصاءٌ للأطفال الكبار الأقل منه ضعفا بكثير. كان ذلك أمرا لا بد من القبول به، بأنه حتم ومرغوب.

كأنما كان أبواي ينبهاني أن عليّ أن أفكر بشكل منطقي: أنت الآن راشدة، أو على وشك. أنت الآن مستعدة لمغادرة البيت. والآن ستتركين البيت.

كان الاسم الذي اخترته أخيرا لأختي الوليدة هو "لين آن" لرنين النون.

٢

لا، لا أستطيع أن أتكلم عنها.

لا يمكن. الكلمات غير متوفرة.

فما دامت هي لا كلام لها، ليس لديّ أنا كلام أقدّمها به.

ليس مسموحا لي أن "أتخيل"، ومن ثم فأنا بلا حيلة.

ما من سبيل. ما من وصول.

ليس إلا المسافة، كالتي من دونها هوة.

ولو أن هناك طريقة فهي مخاتلة، مراوغة.

طريقة القدم أمام الأخرى، والأخرى -

بتثاقل، وحذر، من الوقوع السريع.

ليس جبنا بالضبط (فيما أتصوّر، فلو كنت جبانة ما كنت لأتصدّى لهذه المهمة الميؤوس منها بل لهربت منها) لكنه الحذر. ليس الألم الذي يستحيل إلى لذة.

من التهور أن تندفع إلى الأمام وأنت تعلم أنك ساقط، ولكن ما من سبيل للتقدم غير السقوط.

ليس لك أن تتظاهر أن أختك لم تولد قط.

بنطق سريع ومهمل، تبدو كلمتا المتوحد autistic والفني artistic كلمة واحدة.

لم يكن صحيحا تماما أني هربت إلى الكلية. الأصح، أن الوقت كان قد حان لأغادر، فغادرت.

وبعدما أنهيت دراستي في الكلية، التحقت بكلية

٢_ Bloomsday اليوم الذي يحتفل فيه بجيمس داي ويوافق اليوم الذي جرت فيه وقائع عوليس وينسب إلى اسم بطلها.

CamScanner حة صوئيا بـ

الدراسات العليا في جامعة وسكنسان في ماديسن، وهناك قابلت وأحببت وتزوجت ريموند سميث. وهكذا لم أعد ثانية لأقيم في مايلسبورت.

في ذلك الوقت لم يكن معروفا – ولا حتى مشتبها في أن أختي مصابة "بإعاقات نمو" جسيمة. فهذه الاشتباهات بطيئة الظهور حتى لأبويّ شديدي الحرص، والإحساس بالمسؤولية والحب.

وبعد خمس سنوات أو ست، حينما كنت أنا وزوجي نعيش ونعمل ونعلّم في دترويت، بدأت أسمع أن أبويّ يصطحبان أختي إلى أطباء في منطقة بفالو أشار بهم طبيب الأطفال الذي كان يتعهدها في لوكبورت، بعدما أدرك أنه ليس بوسعه أن يفعل لها شيئا أو حتى أن يشخص حالتها.

لين لا تنظر إلينا. لا تتكلم، أو تحاول الكلام.

لا يبدو أنها تعرفنا. لا تأكل غير أطعمة معيّنة.

مزاجها بدأ يسوء.

ربما تردد اصطلاح التخلف. ولكنني لم أسمع تلك الكلمة في بيتنا قط، ولا نطقت أنا بها فيما يتصل بأختي.

ربما كان هناك تابو من نوع ما على تداول تلك الكلمة بما تنطوي عليه من إشارات إلى الفقر والجهل والجنون. وقد تصلح كلمة خشنة في بعض الأحيان بديلا لقسوة معينة.

في النهاية نُطقت كلمة التشخيص بـ "التوحد". (نطقها أبي في شجاعة. أما أمي، وبحسب ما أعرفها، فما كانت لتنطق الكلمة التي كانت لتلحق بها ألما جسيما).

لم يكن الكثير معلوما عن التوحد في ذلك الوقت (في أواسط ستينيات القرن الماضي)، ولكن كان ثمة تمييز بين التوحد والتخلف العقلي بدا لا غنى عن التشبث به.

بما أن التخلف العقلي لم يكن نادرا في البلد الشمالي في تلك الآونة. لم أتكلم عن الأمثلة العديدة للأشخاص "المتخلفين" الذين صادفتهم في محيط مايلسبورت ولوكبورت، وأغلبهم في سن المدرسة، وكيف أن نسبتهم بدت كبيرة مقارنة مع ما رأيته لاحقا في أماكن أخرى بحيث إنني حينما أفكر في التخلف العقلي أفكر على الفور في أسر ريفية معينة، وفي أبنائهم الموزعين على فصول دراسية خاصة في المدرسة، والمنبوذين بصفة عامة، والمعرضين في بعض الحالات التعيسة للسخرية أو التعذيب ممن يفترض أنهم طبيعيون.

في عائلة "جود" على سبيل المثال، كان هناك احتمال كبير للتخلف العقلي. لكنني لم أشأ أن أتأمل ذلك الاحتمال وأنا أكتب عن صديقتي هيلين جود، لأن ذلك لم يكن موضوعي؛ يبدو أن التخلف العقلي، والاستغلال الجنسي للأطفال، وزنا المحارم كانت مرتبطة بعضها ببعض على نحو يبدو لنا واضحا، لكن دراسته تستوجب مساحة أكبر ووقتا أطول.

لم يبد في حقيقة الأمر أن جدتي بلانشيه مورجنستيرن قد قبلت بتشخيص التوحد. بدت على قناعة (ضمنية، لم يناقشها أحد فيها) بأنه ليس ثمة خطب ذو شأن في حفيدتها الصغرى، فبقيت عاما بعد عام تستقل أتوبيس جرايهاوند من لوكوبورت لتزور أسرة ابنها في مايلسبورت مصطحبة الهدايا لحفيدتها لين، مثلما كانت تفعل معي ذات يوم – كتب التلوين، وألوان الشمع، الكتب المصورة، فكانت كل هدية- حسبما لاحظ أخي في برود- تنتهي إلى الدمار في غضون دقائق قليلة، بدرجات متباينة من الغضب.

ما الذي سيكون من أمر لين، في ظنك؟

ما الذي سيكون من أمر ماما وبابا؟

قد يصعب على الآخرين أن يفهموا أن أسرتنا لم تناقش هذا الأمر إلا قليلا للغاية، ولو بالنسبة لأبوي ولأخي ولي على الأقل. صارت لين آن مسؤولية أبوي الفريدة، والمقدسة بطريقة ما، إذ يقال إن الأطفال المصابين بأعراض داون يحظون بحب جارف من آبائهم، لا كمشكلة بل كهبة. قد يسأل سائل عن لين السؤال الأكثر اعتيادية "كيف حال لين؟" فتكون الإجابة في المعتاد هي "بخير". ولكن أمر لين آن أوتس كان أمرا خاصا، ولم يكن من سبيل على الإطلاق لاختراق تلك الخصوصية.

صارت لين آن مسؤولية أبوي الفريدة، والمقدسة بطريقة ما، إذ يقال إن الأطفال المصابين بأعراض داون يحظون بحب جارف من آبائهم، لا كمشكلة بل كهبة.

لم يقابل أي من أصدقائي في ثانوي أو الكلية أختي. لم يقابل زوجي أختي قط. على مدار قرابة خمسة عشر عاما عاش أبواي مع أختي في ما يشبه حجرا صحيا، لم يزرهم خلالها غير القليلين، إذ لم يكن الكثيرون يرتاحون إلى مكان تتحرك فيه بحرية فتاة مختلة/ متخلفة فتدخل الغرف وتخرج منها كيف تشاء. أو ربما لم يشأ أبواي ببساطة أن يزورهم أحد، ولا فارق.

ظلت جدتي بلانشيه، إلى أن مرضت مرضها الأخير، تزور مايلسبورت حاملة الهدايا الرمزية. كانت جدتي تكنّ لابنها وأسرته حبا عميقا، فبغيرهم ما كانت لها عائلة، وما كنا نعرفه عن زيجتها الثانية بعد أن هجرها الزوج الوسيم الأيرلندي كارلتن أوتس قبل عقود لم يش بأنها زيجة سعيدة، أو تحتمل الاستفسار. (أهو عزوف أسرتي عن الكلام، أم هي لياقة العزوف عن التدخل في شؤون الآخرين؟) ربما كان تعبيرا عن الحب أو الاحترام أو الكرامة أن لا تسأل أحدا أي سؤال ينشأ عنه حرج أو

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشي بأن واجهة سعادته الأسرية لم تكن صادقة على الإطلاق.

من المؤكد أن أحدا لم يكن يتكلم عن لين إلا بالطريقة المعتادة. وفي ذاكرتي، لم يكن أي نقاش للين موضع ترحيب على الإطلاق.

ما الذي سيكون من أمرنا؟ نحن بحاجة ماسة إلى المساعدة.

كانت حماقة مني أن نسيت نسختي من "الإناء الذهبي" The Golden Bowl لهنري جيمس على المنضدة في غرفة المعيشة ببيت أبوي. كنت قد رجعت إلى بيت أبوي في زيارة لأيام قليلة وبلا تفكير تركت بعض كتبي حيث تستطيع أن تصل إليها لين. دمرت الكتب جميعا، لكن الإناء الذهبي فقط هو الذي أتذكره، المفارقة، العواطف، شبكة الكلمات العظيمة التي أبدعها جويس، الكلمات المطبوعة، المجهولة لأختي كجهلي أنا بالسنسكريتية، ولذلك السبب استحقت التدمير تماما.

أو الأقرب للمعقولية أن أختي المهتاجة دمَّرت الكتاب وهي لا تعرف أنه كتاب أصلا، أو كتاب يخص جويس، بل مجرد شيء جديد في البيت، ومن ثم فهو غريب عن المكان، يمثل عدوانا على إحساسها بالألفة والنظام فيه؟

من المؤلم أن أتذكر أختي وهي تمزق الصفحات بقبضتيها، وتمزقها بأسنانها، مطلقة صرخات حادة زاعقة، أو وهي تشخر في شقائها وإحباطها ويأسها. لم تنظر نحوي ولو مرة برغم أنها ولا شك كانت تستشعر حضوري.

(برغم أنها ربما لم تعرف إلى أي مدى عجيب نحن متشابهتان، كأننا توأم بينهما ثمانية عشر عاما).

كانت الجمادات بصفة عامة هي التي تتعرض لهجوم أختي. أما أنا فلم تهاجمني قط.

(ومع ذلك، ربما تكون ذات يوم هاجمتني. بعدما صارت طفلة بالغة، طويلة، كبيرة، محتمل جدا أن تكون لين قد هاجمتني، مثلما هاجمت أمي ذات يوم).

كم هي حية لاتزال في ذاكرتي، تلك النسخة من الإناء الذهبي، بمقدمتها البليغة المحكمة المنيعة على الاختراق، التي كتبها آر بي بلاكبر. ممزقة تماما، وآثار الأسنان الصغيرة الرهيبة منحوتة في ما بقي من صفحاتها.

"أوه لين، ما هذا الذي فعلت؟"

كنت أعي تمام الوعي بوجود أمي في طرقة المطبخ غير بعيدة على الإطلاق وقد جاءت لترى ما الذي يجري. ولو كنت وأمي تبادلنا كلمات في تلك الواقعة فقد نسيتها تماما.

محتمل جدا أن تكون أمي قد قالت إنها غلطتي أنا لأني تركت الكتب في ذلك المكان المحتمل أن تصل إليه لين. وبالطبع كان ذلك صحيحا. فلو كان ثمة غلطة في ذلك الأمر فما كان يمكن أن تكون غلطة أحد غيري.

في المطبخ كانت أختي، منحنية، تتمايل من جانب إلى جانب وهي تصدر صوتها المختنق نياه- نياه- نياه. لم يكن ذلك ضحكا، ولا سخرية، ولا إهانة- كان صوتا محضا، بلا أي معنى. ربما كانت لين في تلك المرة في الثامنة أو التاسعة أو العاشرة، طفلة كبرت بدنيًا لا عقليا.

كانت مواجهة الإناء الذهبي انتصارَ طفلة، ولكنها تسبّبت لها في قدر هائل وخطير من الإثارة، بات ثمة خطر من أنها قد تهاجم شيئا آخر، أو أحدا آخر.

ومع ذلك أبقوا على لين في البيت حتى بلغت الخامسة عشرة. وباتت أطول من أمي وأثقل، وسريعة الاهتياج. وخطرة.

وتلك كانت المرة الأخيرة التي أرى فيها أختي، وقد بلغت الخامسة عشرة تقريبا.

لم يكن مخططا لميلادها.

كثيرا ما كان يقال ـ ولكن لين وهي طفلة كانت تبدو طبيعية تماما. كانت جميلة للغاية. لم يظهر عليها أي شيء.

فهل كان الأمر كذلك؟ ألم تظهر على لين أية إشارة؟ من ذا الذي يتذكر بعد كل تلك السنوات؟

نرى، بأثر رجعي، ما نرجو أن نراه. نرى ما تتيح لنا أرق سردياتنا بنا أن نراه. لكننا نادرا ما نعرف ـ وسط ركام الأشياء ـ ما الذي نراه بحق، لأن كل شيء يجري بسرعة شديدة تستعصي على الاستيعاب.

صارت قصة تروى وتحكى، لا شك أن الأبوين حكياها مرارا للأطباء، وللمعالجين، وللممرضات، قصة لين وهي صغيرة للغاية، في الثانية من عمرها أو الثالثة، حينما وقعت فانكسرت ساقها أو تمزقت أربطتها. وعلى مدار أسابيع كثيرة وضعت قدمها في جبيرة. قبل ذلك كانت تمشي، أو تحاول المشي، ثم انتكست بعد الجبيرة إلى الحبو من جديد، أو إلى جرّ ساقها على الأرض من ورائها. كانت تبكي، وتهز جسمها إلى اليمين واليسار تجسيدا حيًا لشقاء طفلة. وتكهَّن أبواي وغيرهما أن تلك الفترة الحاسمة من نمو لين، ومهما يكن التقدم الذي كانت تحرزه في تعلم المشي والكلام والتواصل، هي الفترة التي بدأ فيها تخلفها.

كان يقال عن الطفلة المبتلاة إنها تحسب أن هذا عقاب لها. وكيف نجعل الطفلة المسكينة تفهم أن هذا ليس عقابا لها؟ كيف نجعلها تفهم أنها محبوبة؟

ربما للجبيرة الثقيلة على ساق لين علاقة بعيوبها العقلية، التي باتت تزداد وضوحا بمرور الوقت. وربما أيضا لا تكون للجبيرة على ساق لين علاقة بنموها العقلي.

سيقال بعد بضع سنوات (على لسان أحد المتخصصين الكثيرين الذين اصطحبت إليهم لين) إن التوحد شكل من

ه صوتيا بـ CamScanner

أشكال الشيزوفرنيا الناجم عن سوء الرعاية الأمومية.

سوء الرعاية الأمومية. صعب جدا عليّ أن أنطق هذه الكلمات القاسية الجاهلة.

كارولينا أوتس، أدفأ أمّهات الدنيا وأحبهن، يجعلها بعض "المتخصصين" (الذكور) تشعر أنها المذنبة في إعاقة ابنتها!

لسنين ظللنا ضحايا تلك التشخيصات الفظة. كنا نعرف أنها غير صحيحة، فأمي لم تكن "باردة وبعيدة" شأن الأم المتهمة، ولكن هذا العلم الفاسد كان يستند إلى نظرية التحليل النفسي الفرويدية الكارهة بصفة عامة للنساء والتي ترى أن الأم (وحدها) هي مركز الضرر، وأن الأم هي التي "تتسبَّب" في مثلية ابنها على سبيل المثال. (وماذا عن دور الأب في نمو الطفل؟ أليست للأب مسؤولية مماثلة، أو جريرة؟) كانت تلك التشخيصات الزائفة تؤذي أمي أذى شديدا، وتخترق روحها بلا شك. فلا يمكن لأحد أن يقول لأم مكلومة بإعاقة ابنتها إنها المخطئة أيضا.

بعد سنين كثيرة أجدني مستاءة بالنيابة عن أمي الرقيقة الهامسة المتواضعة، التي قدَّمت قدر ما قدمته أي أم من جهد في مهمتها الأمومية الطويلة وغير المجدية. فأمي نفسها لم تكن مستاءة بقدر ما كانت محطمة، وخجلة. وطوال سنين.

ولا يبدو لوم الأمهات على التوحد، والشيزوفرنيا والمثلية أيضا، أقل جدارة بالرفض من جراحة فصوص المخ التي شاعت في الأربعينيات والخمسينيات علاجا لسوء السلوك.

هو العلم كاره النساء، لا سيما علم النفس! تلك العقود الكثيرة، بل القرون، التي كان نموذج الطب فيها هو الذكر الأبيض، بينما الأنثى انحراف ضعيف عن النموذج، فحين لا يلقى الهجوم السافر، لا يزيد نصيبه عن التعالي أو الإشفاق أو الازدراء. هل تعلمون أن الطبيب الجليل الذي يعد "أبا علم أمراض النساء الحديث" جيه ماريون سيمز (١٨١٣- ١٨٨٤) كان يجري طوال سنوات تجاربه على إمائه الأفروأمريكيات بدون تخدير، وكان يجري جراحات في علم أمراض النساء بدون تخدير على أيرلنديات (أي غير بيضاوات) كن أفقر وأجهل من أن يعترضن؟ وبالمناسبة، كان الجليل د. سيمز يجري تجارب على الأطفال الأفروأمريكيين. إذا كنتم تعرفون هذه المعلومات الرهيبة، ربما تعرفون أن تمثال أبي علم أمراض النساء الحديث لا يزال قائما في سنترال بارك بمدينة نيويورك، بل إن د. سيمز هو في حقيقة الأمر أول طبيب أمريكي يقام له تمثال. ومن ثم فمن السذاجة المؤكدة أن أرثي أنا للمعاملة الفظة الوقحة التي لقيتها أمي من "متخصصين" في نمو الأطفال في منتصف القرن العشرين.

بعد عقود، وفي القرن الحادي والعشرين، تشير دراسات عصبية نفسية لظاهرة التوحد إلى أن الحالة لا تنجم عن أي خطأ في التربية بل نتيجة عيب خلقي في المخ.

الكيمياء العصبية إذن، وليس الممارسات الأمومية الخاطئة.

ومع ذلك تأبى كراهية النساء القديمة أن تموت بسهولة، فستجدون كثيرا من الناس، ومن بينهم أطباء تفترض فيهم الثقافة يلومون الأم على مرض طفلها.

شهدت السنوات الأخيرة حركة شعبوية غير علمية ضد التلقيحات، انطلاقا من اعتقاد (خاطئ) بأن التلقيحات تتسبب في التوحد لدى الأطفال الصغار، ولكن الأكثر شيوعا وإقناعا هو اعتقاد علماء الأعصاب بأن أسباب التوحد متعددة، وتتمثَّل في الجينات والبيئة. فما من عامل وحيد "يتسبب" في التوحد، بل ظروف تزداد في ظلها احتمالية التوحد. غير أنه في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور، ودونما سبب معلوم، يبدو أن حالات التوحد تزداد في الولايات المتحدة.

الذين عرفوا التوحد منا معرفة حميمية يحارون أمام حالات التوحد المرموقة في أعين الناس. داستن هوفمان في "رجل المطر"، تيمبل جراندن الكاتبة والمتحدثة والمنظرة في علم الحيوان. يبدو توحد أمثال هؤلاء الناس لطيفا بالمقارنة مع أختي البكماء المنعزلة التي لم تنطق قط كلمة واحدة متماسكة ناهيكم عن أن تلقي محاضرات عامة أو تؤلف كتبا تصبح من أكثر الكتب مبيعا. (غير أن "صندوق العناق" hug box العبقري الذي اخترعته تيمبل جراندين لاحتضانها، وهي التي تجفل من اللمسة الإنسانية والاتصال مع البشر، ربما كان ليكون أداة ممتازة لاحتواء نوبات أختي في الفرح والحزن).

بل إن بعض الدوائر تقترح الاحتفاء بالتوحد بوصفه نوعا من الثراء والتنوع العصبي. فكما أن هناك عددا معتبرا من الصم لا يرجون أن يسمعوا بل يفضلون صمت لغة الإشارة على الكلام الشفوي، هناك من يعتقدون، ومن بينهم تيمبل جراندن، أنه لا ينبغي القضاء على التوحد إن ظهرت له أدوية أصلا.

وهذا موقف رومانتيكي، ولكنه ليس مقنعا، لمن عرف مباشرة ماذا يكون التوحد العنيف. وحتى لو أن بوسع التوحد أن يتكلم، من داخل غرفه المخيفة، فهل بوسعنا نحن أن نصدق ما قد يقوله؟ وإلى أي مدى سنكون مسؤولين ونتصرَّف بناء على ما نصدقه؟

٣

في عام ١٩٧١، وقد بلغت لين الخامسة عشرة، رتّب أبي لها أخيرا الإقامة في دار بمنطقة بفالو تقدِّم الرعاية العلاجية للأفراد المعاقين ذهنيا الذين يصعب إبقاؤهم في منازلهم. كان قرارا شديد الصعوبة على أبوي، وإن

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدا لآخرين في العائلة أنه تأخر سنين، وكان واجبا منذ وقت طويل.

كان قد حدث ذات يوم أن هاجمت أختي أمي داخل المطبخ. كان أبواي لا يحبان الحديث عن لين بصورة سلبية أو انتقادية، ويعزفان عن الرد كلما سئلا عن أمنهما في ظل بقاء لين في البيت، وهكذا لم أعرف قط تفاصيل ذلك الهجوم. ولكنني كنت أخشى دائما أن يقع مثل ذلك لأمي، التي كانت تقضي جميع ساعات صحوها حرفيا في رعاية أختي، فتتأذّى أذى شديدا، أو تهن عزيمتها على أقل تقدير وتفقد معنوياتها.

وليس بوسع أن يقول أحد لمثل أبويّ المتفانيين ولكن عليكما أن تضعا لين في مستشفى! أنتما غير مجهزين لرعايتها.

فلم يكن أبي، العقلاني في ظروفه الطبيعية، عقلانيا عندنا يتعلق الأمر بمناقشة هذه الأزمة الأسرية. ولم تكن إثارة الموضوع محببة أصلا، إذ كان أبي يغضب غضبا شديدا، ويتأهب للدفاع. بل إن مجرد الكلام الهامس التبريري كان ينطوي على مخاطرة الاتهام بالخيانة والتطفل. أما الضغط الواقع على أمي، وهي المسؤولة الوحيدة عن رعاية لين يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وعلى مدار سنين، فكان طاغيا، وفي النهاية انهارت صحتها. حتى إنني سأعرف يوما أن أمي كانت تتناول المهدئات لتتمكّن من احتمال توتر رعاية لين، وبموافقة من أبي. بينما كان أبي بطبيعة الحال يقضي أغلب وقته في عمله، خارج البيت.

بحلول ذلك الوقت كان أبواي يعيشان في بيت صغير سبق أن أقاماه في مزرعة لهما، وكان البيت والمزرعة قد تداعيا. كانت جدتي المجرية لينا بوش قد ماتت. وأخي روبين- أو فريد الابن- كان في آخر العشرينيات وقد تزوج وانتقل للعيش على بعد بضعة أميال في كلارينس بنيويورك. كانت حياة المزرعة القديمة، أي حياة طفولتي، قد ذهبت بلا رجعة، وحل بدلا منها ما صار يبدو في بعض الأحيان كابوسا أسريا سرياليا: أبواي الحبيبان، وقد تجاوزا الشباب، في بيت خشبي ريفي ذي طابق واحد ككثير من البيوت على طريق ترانزيت، يرعيان في هوس ابنتهما المدمرة عقليا الشبيهة أغرب الشبه بابنتهما الكبرى التي حلت محلها.

لا بد أن أبوي، وبالذات أمي، قد وجدا راحة من إقامة لين في الدار، ولا بد أنهما في الوقت نفسه وجدا في ذلك نوعا من الهزيمة. كانا قد بذلا جهدا كبيرا في محاولة الإبقاء على ابنتهما في البيت، إذ كانا لا يرغبان أن يسلّما بأن فيها خطبا ما، وأنها قد تمثّل خطرا على الآخرين وعلى نفسها. كان حبهما للين لا يقل عن حبهما لابنتهما الكبرى وابنهما فريد، ولم يتبدد ذلك الحب للين قط.

في تلك الدار القريبة من بفالو، والمتخصصة في رعاية الأطفال المتوحدين والمرضى عقليا، تلقّت أختي رعاية احترافية ممتازة. إلى أن تم تسكينها في نهاية المطاف في بيت جماعي مع خمس حالات أخرى كانت تذهب جميعا في سيارة إلى مدرسة للمعاقين لخمسة أيام في الأسبوع، وست ساعات في اليوم. ويقال إن المعاقين ذهنيا يكونون في أسعد حال في ظل هذه المجتمعات شديدة الانضباط.

فالعالم الخارجي هو سر شقائهم، عالم "الطبعيين" من إخوانهم وأخواتهم. أما عالمهم المحدود ففيه أمنهم وسلامهم.

كنت أظن أنها تعيش حياة رهيبة لكنها لم تبد حزينة، هكذا كان يقول أخي.

تبدو الخوذة اللامعة ثقيلة لا تطاق، لكنها في الحقيقة مصنوعة من أخفّ أنواع البلاستيك. وتكون مبطنة من الداخل و(يقال إنها) مريحة، شأن خوذة الدراجة من الداخل. أحزمة الذقن سهلة التركيب و(يقال إنها) لا يحتمل أن تسبِّب اختناقات أو إصابات إلا في أبعد الظروف احتمالا حينما يعمد المصاب إلى إيذاء نفسه.

في مرحلة ما من المراهقة بدأت لين تعاني نوبات تشبه نوبات الصرع. وبرغم أن الأدوية كانت تسيطر بدرجة ما على هذه النوبات، إلا أنها كانت مضطرة إلى ارتداء الخوذة طوال الوقت، إلا حينما تكون آمنة في سريرها.

يقول الأطباء ـ هي ليست غاضبة. ليس الغضب الذي نفهمه.

يقول الأطباء بحذر ـ أختك صارت محبطة. وهذا نمطي لمن لديهم حالتها، أن يصيبهم الإحباط. عادة ما يتخذ وجهها سمت الغضب الشديد أو الألم المبرح لكنه ليس تعبيرا سيكولوجيا أو شعوريا من النوع الذي قد تشعرين أنت به. بل تعبير ناجم عن توتر عضلي أو تقلص في الوجه.

لا تتصوري أن هذا عداء تجاهك.

لا تتصوري أنها واعية لك، أو أن ما يرتسم على وجهها هو بأية حال رد فعل على وجودك.

عبر هذه الهوة ليس ثمة إمكانية للتواصل.

لولا التفكير الرومانتيكي. التفكير المنطوي على عزاء. لم يتخل أبواي قط عن الأمل في أنهما قد يقدران على عبور تلك الهوة. من المؤكد أنهما كانا يصطحبان لين إلى البيت كلّ أحد، بمنتهى الانضباط، إلى أن منعهما المرض، والهرم، وحتى بعدما باتت النوبات تصيبها بوتيرة أكبر فصار لزاما عليها ألا تخلع خوذتها الآمنة طوال يومها، وحتى حينما بات واضحا أنها لا تعرفهما، وأنها بعد فترة قصيرة في بيتهما- الذي كان يجري تنظيفه وترتيبه استعدادا لوصولها- تبدأ في الاهتياج مبدية رغبة حارة في الرجوع إلى الدار التي باتت في ذلك الوقت

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

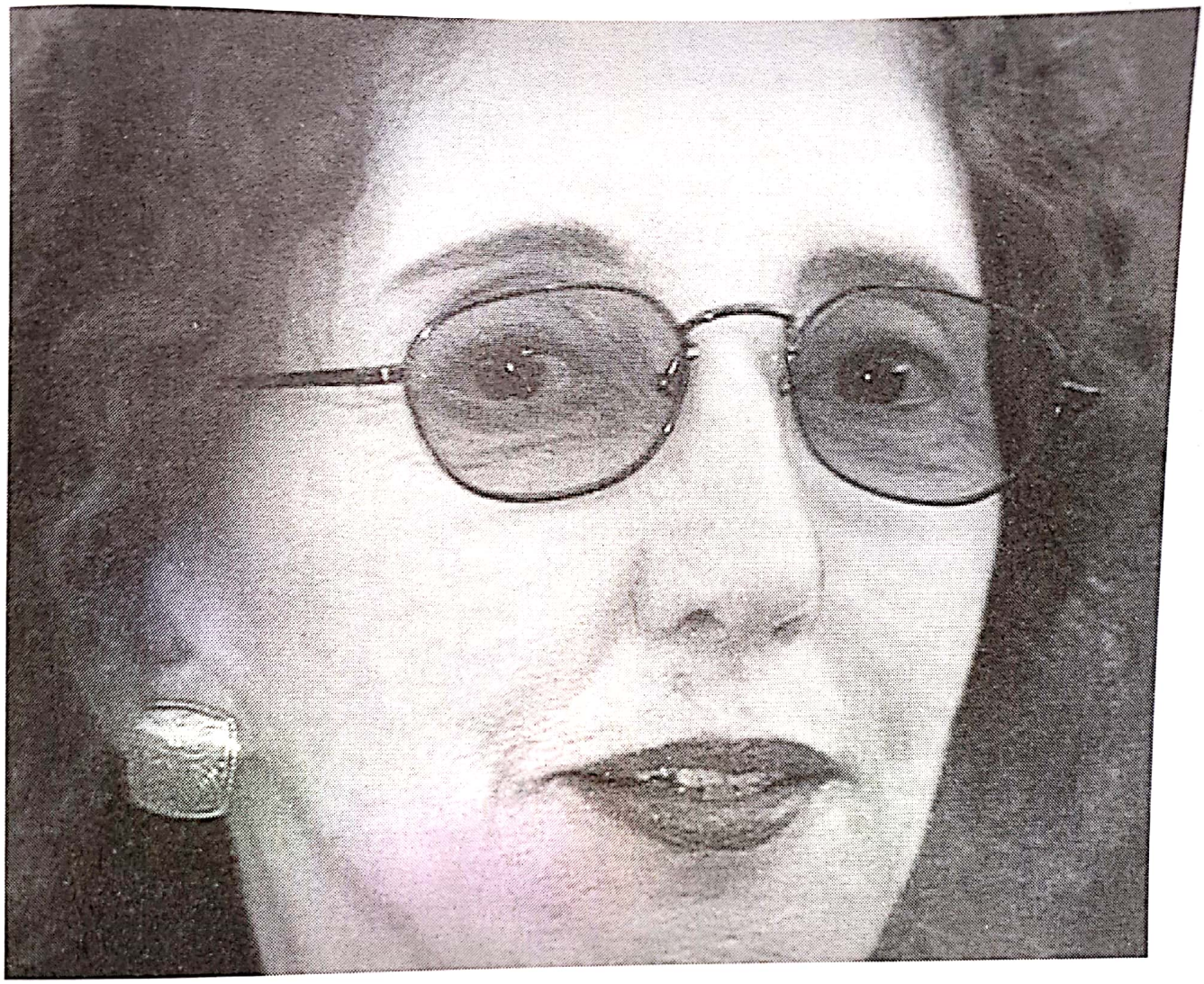

مألوفة لها أكثر من بيتها، بل صارت بالنسبة لها وطنا لو أنها كانت تعرف كلمة الوطن.

ما كان أحد يرغب في الاعتراض على اقتناع أبوي بأنهما قد يقدران على التواصل مع ابنتهما. وما كانا يجهران بذلك الاقتناع. كان حبهما لابنتهما مسألة شخصية تماما، حتى وإن ظهر لآخرين في العائلة حبا مطلقا صبورا كريما لا يتزعزع. وهذا معنى "الحب غير المشروط" الذي لا يتضاءل بمرور الزمن. وينفطر قلبي حينما أفكر أن أبوي أحباني أنا وأخي بهذه الطريقة أيضا، ليس أكثر من حبهما لأختي، وليس أقل منها بالقطع، ولم يكن ذلك عن اقتناع ديني، أو حتى عن مبدأ أخلاقي، ولكن لأن تلك كانت طبيعتهما.

الحب الأبوي طبيعي، كالتنفس، كالحلم.

أختك لم تعرفك يوما.

أختك لم تنظر إليك يوما.

أختك لم تلق نظرة عليك يوما.

أختك لا تعرف من أنت، أو ماذا تكونين.

أختك لا تعرف أنك أنت، أنك موجودة.

ولا أن أحدا موجود، ولا أنها هي نفسها موجودة.

لو أن هناك لغزا، فأختك اللغز.

ها هي البندقة المنيعة على الكسر. بل ها هي الكوان[٣].

حيرتك في هذا الشبه الكبير بأختك الصغرى، بعينيها البنيتين الداكنتين، وشعرها البني الداكن الثقيل.

كل من يراها، ويراك، ينظر من واحدة إلى الأخرى، فينتابه هذا الشعور الحاد: كيف تشبهك أختك، التي تصغرك بثمانية عشر عاما، والتي لم تنطق طوال حياتها بكلمة، هذا الشبه الصاعق؟

لن تلتقي عيناها بعينيك مهما انتظرت بصبر أو بنفاد صبر. لأنها ليست مثلك، لأنها لا تشبهك.

هي فرد بلا لغة. وليس بوسعكم أن تتخيلوا شيئا كهذا، أن يكون فرد ما بلا لغة.

قرابة ستين عاما وهي تعيش في صمت. لا تسمع أصوات الآخرين مثلما نسمعها، وإن تكن تعلمت الاستماع في الفصول العلاجية في الدار. أما كلامها هي فشخير، وأنين، وتأوهات، ونشيج وصيحات إحباط وكبد. ولا تضحك، لأنها لم تتعلم الضحك.

في حضرة الضرر المخي نجد أنفسنا في وادي التململ. نحن الذين نتململ، شاعرين بعدم الارتياح، بل بالفزع.

٣- koan لغز أو نادرة تنطوي على مفارقة عند بوذية الزن.

حة ضوئيا بـ CamScanner

ثمة ما يحملني على الإحساس بالذنب، لأنني قادرة على اللغة، على الكلام المكتوب والمنطوق، بينما هي عاجزة. ومنذ ميلادها.

وليس ذلك ما نستحقه، بل أوتينا إياه.

وليس ذلك ما نحن إياه، بل ما حملنا على أن نكون إياه.

لم أر أختي المبتلاة منذ عام ١٩٧١، منذ أن كانت في الخامسة عشرة. أطول مما ينبغي لعمرها، نحيلة، ممصوصة، بيضاء، وعلى وجهها تعبير غضب وألم، أو هو تعبير خواء وعناد. ذات في مرآة، مشوهة بدقة. أخت توأم، بينها وبين أختها التوأم ثمانية عشر عاما. ومع أنني فكرت كثيرا في لين على مدار السنوات التالية، لكنني لم أرها، وذلك في البداية لأن أبوي كانا لا يرغبان في ذلك، وفي النهاية، لأن أي زيارة كانت لتصيبها بالحزن، وتصيبني به. ولأن أي زيارة لا قيمة لها. فهي لن تعرفني، ولن تلقي علي ولو نظرة. ولأن ما يمكن أن أعرفه عنها من زيارة كهذه، لا يمكن احتماله.

من الصعب أن أتخيل فما لم ينطق كلمة واحدة، ولم يبتسم.

وعينين لم ترتفعا إلى وجه، ولا تزالان مغلقتين على تحديقة أخرى.

الأدب كله، والفن كله، ينبعان من أمل التواصل مع الآخرين. ومع ذلك هناك من الآخرين من لا يمكن أن يقوم تواصل معهم، أو لا يستحب.

يبدو وكأنها لا تعرف أننا موجودون.

فيم تظنونها تفكر؟

ربما لا يوجد جواب لهذا السؤال: هل المخ يفكر؟

لو أصيب المخ إصابة كافية، أو توقف عن النمو: هل بوسعه أن يفكر؟

ربما المخ في ذاته لا يفكر، بل الكيان البشري الكامن في المخ، الذي يسميه البعض بالروح، هو الذي يفكر. ولكن، هل للروح، أو العقل، أن يتمايزا عن المخ؟ إننا نتكلم عن مخـ"نا" وكأننا نملكه، مثلما نتكلم عن كواحلـ"نا" وأعينـ"نا". ولكن ربما يكون هذا الاستعمال الشائع مضللا. فلسنا منفصلين عن أمخاخنا، وأمخاخنا هي التي تفكر. أو تعجز عن التفكير.

واضح أن أمخاخنا تولّد الوعي، ولكن عبر عملية لاواعية. لقد درجنا- في الغرب على الأقل- على الاعتقاد بأنـ"نا" نقع في مكان ما داخل أمخاخنا، وراء أعيننا، فأعيننا هي التي تنفذ عبرها أبصارنا. وحينما ننظر في أعين الآخرين، ونحن نتكلم معهم، فإننا ننظر إلى أمخاخهم، أي جواهر ذواتهم، أو هذا ما نظنه. (مزعج أن نفكر أن ذواتنا تقع في المخ العضوي القابل للهلاك، في شبكة شاسعة لانهائية من العصبونات لا سبيل إلى تعقبها، وأن ذوات الآخرين تقع في أماكن مماثلة). باستثناء أنه في حالة بعض الأفراد بالطبع لا يوجد تواصل بين العينين، ويأبى المخ أن يعمل وفقا لتوقعاتنا منه.

في إبريل ٢٠١٤، وبعد أربعة عشر عاما من وفاة أبينا، وبناء على استفسار مني، أطلعني أخي على مستجدات حالة أختنا التي لم يبد أنها تغيرت: لين بلا لغة، لا تتكلم على الإطلاق. تصيبها النوبات كثيرا، وترتدي الخوذة طول الوقت لحمايتها عندما تسقط. لا تعرفني ولا أعتقد أنها تعرف أحدا على الإطلاق. خجول، لا تحب أن يطرأ أي تغير على روتينها.

كنت لأفزع أبويّ وأغضبهما لو اقترحت أن أقوم بزيارة لين في الدار، كانا ليعتبرا ذلك تطفلا، ويفهما أن غرضي من الزيارة هو الكتابة عن أختي، وما كانا ليريداني أن أكتب عنها، لا في ذلك الوقت، ولا في أي وقت آخر. وهكذا، لم أطلب قط زيارتها، برغم أنني في مرات كثيرة تخيلت زيارة تلك المرأة وقد نضجت وصارت على الأرجح تشبه كثيرا ما كان يمكن أن أكون إياه لو ولدت بكارثة عصبية أتلفت مخي. وبعد ستين عاما، وفيما أتأمل فكرة زيارة لين أخيرا، بصحبة أخي فريد، أشعر بالوهن، والرعب، والذنب.

فالحقيقة أن الزيارة لن تفيد لين، ليس إلا أنا. ستكون الزيارة تطفلا عليها، وإزعاجا لها، وهي التي يزعجها أي تغير في روتينها. أخي فقط هو الذي يزور لين في السنين التالية على وفاة أبينا. لكن لين لا تعرفه، لا تعي به، وحتى هذه الزيارات بالنسبة له لا قيمة لها، فباستثناء أن فريد أوتس الصغير هو الوصي على لين، فلا دور له في حياتها. غير أن أخي (ببطولة في تصوري) تقبَّل أن يكون الوصي عليها، متحملا المسؤولية التي طلبها منه أبي.

"ساعدينا على تسمية أختك الوليدة يا جويس".

كانت لحظة احتفالية. كانت في حقيقة الأمر لحظة عيد ميلادي: عيد ميلادي الثامن عشر. لم يكن قد طواني النسيان بعد.

ابتسم أبواي. كانا يرجوان، إن أنا شاركت في تسميتها، أن أحبها مثلهما.

كان ذلك منذ زمان بعيد. وزمان سعيد، نعم.

فقد كان الكثير لا يزال كامنا في المستقبل، لا يستشرفه أحد. وما من سبب يدعو أحدا إلى استشراف كل السنين الآتية بما ليس في الحسبان.

بعد أيام من التدبر قدَّمت لأبوي الاسم الذي بدا لي مثاليا ـ لين آن أوتس.

قالا إنه اسم لطيف للغاية. قالا "شكرا لك يا جويس".